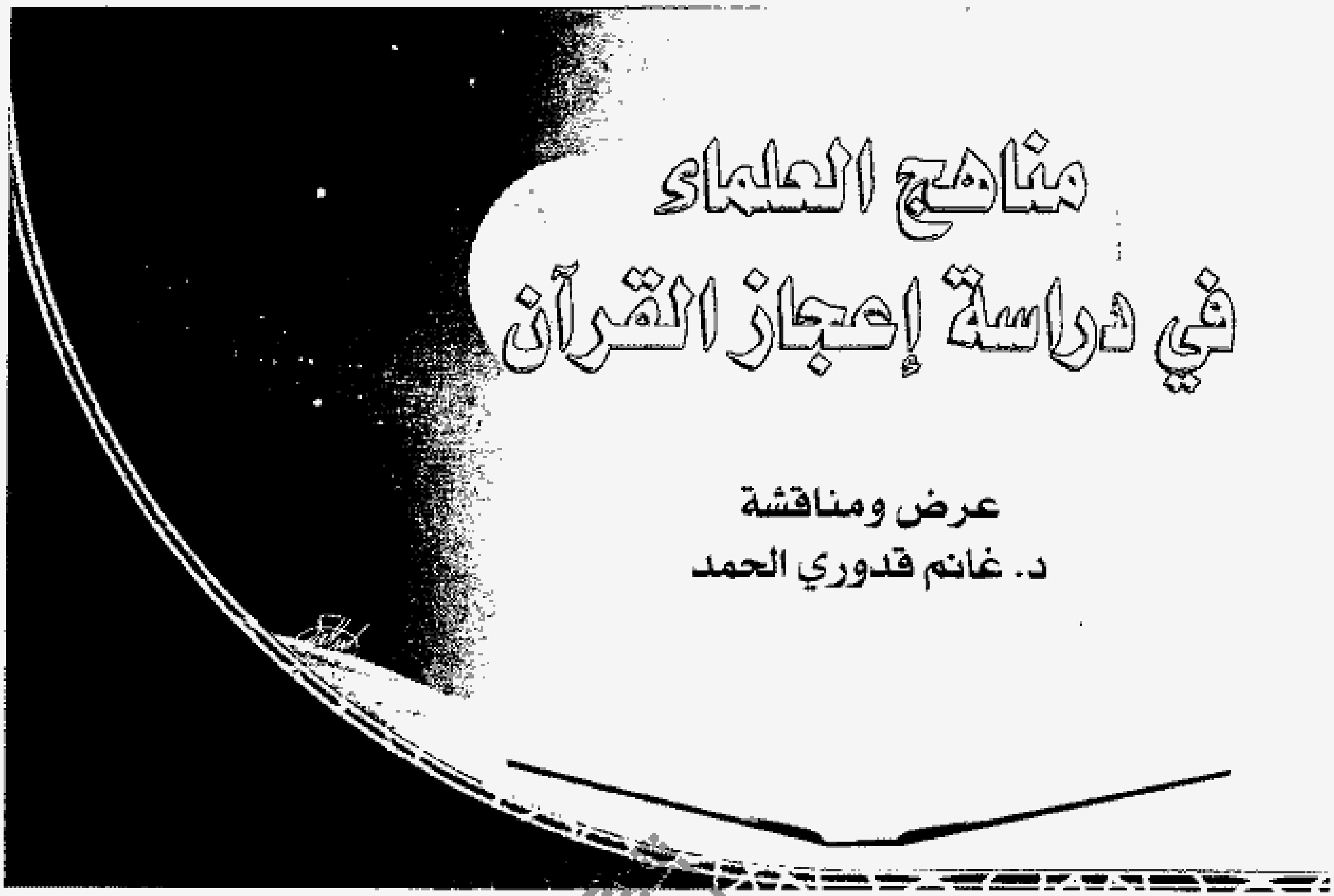

مناهج العلماء في دراسة إعجاز القرآن

عرض ومناقشة

د. غانم قدوري الحمد

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الحمدلله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن القرآن المجيد هو المعجزة العظمى الخالدة التي أيَّدَ الله سبحانه وتعالى بها رسول الله ﷺ فتلاه على الناس من حوله، ودعاهم إلى الإيمان به، فكان تأثيره في النفوس كبيراً، فازداد عدد المؤمنين، بينما ازدادت حيرة المشركين، فزعموا أنه سحر أو شعر، وقالوا: إنه أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، فتحداهم القرآن إلى أن يأتوا بمثله أو شيء منه، لكنهم عجزوا وخُذلوا.

وقد أفاض العلماء في الكلام عن إعجاز القرآن والبحث في وجوهه. وتعددت آراؤهم في ذلك، فذهب بعضهم إلى أن الإعجاز منحصر في نظم القرآن، وبلاغة تعبيره، وذهب بعضهم إلى أن الإعجاز متركز في معاني القرآن وما تضمنه من تشريع وحكمة وبيان لأسرار الخلق وأخبار ما مضى وما هو آتٍ. وجمع آخرون بين المذهبين

وقالوا: إن الإعجاز كائن في نظم القرآن وفي معانيه معاً. وفرّق آخرون بين ما هو مِنَ الإعجاز وما هو دليل على صدق الرسول ﷺ مما ورد ذكره في القرآن من أسرار الخلق وذِكْرِ المغيَّبات.

وأيّاً كانت جهة الإعجاز في القرآن فإن المؤمنين مقبلون على القرآن تلاوةً وحفظاً وتفسيراً وفقهاً، لا يزيدهم تعدد الأقوال في الإعجاز إلا تعلقاً به وإجلالاً له، ما داموا قد آمنوا أنه وحيٌ من الله تعالى، وأنه المعجزة المستمرة الباقية التي تضمنت أصول الدين والشرع القويم.

ولم تزل دراسات الإعجاز القرآني في عصرنا قائمة واتجاهاتها متعددة، وقد وسَّعت الاكتشافات العلمية الكبيرة في هذا العصر من دائرة البحث في أسرار القرآن للوقوف على آفاقٍ جديدةٍ من وجوه إعجازه. وقد وجدت أنَّ عرض مناهج العلماء والباحثين في دراسة إعجاز القرآن الكريم أمر مفيد إن لم يكن ضرورياً، من أجل ألا تظهر تلك الدراسات وكأنها تسير في اتجاهات متضادة، ومن أجل أن نكتشف الإطار الكبير للإعجاز القرآني الذي تجد فيه كل دراسة مكانها الذي لا يتعارض مع غيرها من الدراسات.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ومن ثمَّ فإنني في هذا البحث سوف أقتصر على عرض المناهج، مع التركيز على الاتجاهات العامة في دراسة الإعجاز من غير الخوض في التفصيلات من أجل الوقوف على المنهج الذي يمكن أن يكون أكثر ملاءمة للكشف عن أسرار القرآن وإظهار وجوه إعجازه، وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: الإعجاز القرآني في عصر النبوة.

المبحث الثاني: مناهج العلماء في تحديد وجوه الإعجاز.

المبحث الثالث: ملامح المنهج الأمثل.

وأرجو أن أكون بذلك قد أسهمت في خدمة القرآن العظيم، وقدَّمت شيئاً نافعاً لدارسيه، فإن تحقق ذلك فبفضل الله تعالى، وإن قصَّرت فعسى ألا أُحرم بركة القرآن

وثواب مَنْ أحسن النيَّة وبذل الجهد، والله وليُّ التوفيق، هو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الأول: الإعجاز القرآني في عصر النبوة:

الإعجاز مصدر على وزن إفعال من العجز، وفعله أعجز، والفعل الثلاثي المجرد عَجَزَ يَعْجِزُ ويقال: عَجِزَ أيضاً، وعَجَزَ عن الأمر إذا قصر عنه، وأعجزني فلان إذا عَجَزْتُ عن طلبه وإدراكه، والعجز الضعف.[(١)]

والإعجاز في الاصطلاح هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير.[(٢)] والمُعْجِزةُ أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالمٌ عن المعارضة،[(٣)] وسميت معجزةً لأنَّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها. وأيَّد الله نبينا محمَّداً ﷺ بجملة من المعجزات «وأفضل مُعجزاته وأكملها وأجلُّها وأعظمها القرآن الذي نزل عليه بأفصح اللغات، وأصحها، وأبلغها، وأوضحها، وأثبتها، وأمتنها، بعد أن لم يكن كاتباً ولا شاعراً ولا قارئاً، ولا عارفاً بطريقة الكتابة، و[بعد] استدعاء من خطباء العرب العرباء وبلغائهم وفصحائهم أن يأتوا بسورة من مثله، فأعرضوا عن معارضته، عجزاً عن الإتيان بمثله، فتبيَّن بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم»[(٤)]

ولم يكن مصطلح (الإعجاز) قد تميز في عصر النبوة، وإن كان معناه قائماً معروفاً، فقد روى البخاري -رحمه الله- أن النبي ﷺ قال: «ما مِنَ الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».[(٥)] قال ابن حجر: «أي أن معجزتي التي تحديت بها

---

(١) ابن منظور: لسان العرب (٧/ ٢٣٦ عجز).

(٢) الفيروز آبادي: بصائر ذوي التمييز (١/ ٦٥).

(٣) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٦٩)، والسيوطي: الاتقان (٤/ ٣).

(٤) الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز (١/ ٦٧).

(٥) ينظر: ابن حجر: فتح الباري (٩/ ٣) و (١٣/ ٢٤٧).

[هي] الوحي الذي أُنزل عليَّ، وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح».[1]

وقد جاء في القرآن ما يؤكد أنه أكبر معجزاته ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]. فكان القرآن يُثبِّتُ المؤمنين، بينما ظل المشركون في حيرتهم يترددون.

وكان المعاندون يُفزعهم القرآن وهو يُتلى على الناس من حولهم فيكون له ذلك التأثير الهائل في نفوسهم حين يتحولون من الكفر إلى الإيمان، فشنُّوا حملةً للتشكيك في القرآن وفي صدق النبي ﷺ وقد حكى القرآن بعضاً من تخرصاتهم تلك، حيث يقول الله تعالى:

١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ:٤٣].

٢- ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥].

٣- ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦].

٤- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:٤-٥].

٥- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣١].

ولم تكن أقوال المشركين الباطلة في القرآن الكريم لتوقف سير الدعوة أو لتقنع المشركين أنفسهم بصدق دعواهم، فقد كانوا متحيرين في أمرهم، لا تكاد نفوسهم

---

(١) فتح الباري (٩/ ٦)، وينظر: السيوطي: الاتقان (٤/ ٣).

تستقر على شيء حتى تتحول عنه، لكن الله تعالى لم يدع تلك الأقاويل الباطلة لتؤثر في النفوس الضعيفة، فردها عليهم من أبسط طريق، حين تحداهم بالقرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فقال الله تعالى:

١- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

٢- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٣٨].

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:١٣].

٤- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ويُستخلص من هذه الآيات الكريمة أمران:

الأول: التحدي إلى القرآن، وهو تحدٍ قائمٌ طوال حياة رسول الله ﷺ.

والثاني: أن المشركين عجزوا عن الإتيان بمثله أو مثل بعضه وهو عجز يدل عليه النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين.(١)

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه ﷺ ونبوته وضمّن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا إلى تخليص

(١) الباقلاني: إعجاز القرآن، ص١٨، والزركشي: البرهان(٢/ ٩١).

أنفسهم وأهليهم من حكمه بأمر قريب، هو عادتهم في لسانهم ومألوفٌ من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم تحصل هناك معارضة منهم عُلم أنهم عاجزون عنها.[1]

كان عجز المشركين من العرب عن معارضة القرآن -إذن- حقيقة لا جدال حولها. وكان عجز غير العرب عن ذلك أوضح، لأن العرب -وهم المتكلمون باللغة المنزل بها- عجزوا عن ذلك مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.[2] وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم مضت سنوات كثيرة وجاء عصر تدوين العلوم الإسلامية، وبحث العلماء شتى المسائل المتعلقة بنص القرآن وتاريخه، ونالت مباحث إعجاز القرآن قسطاً ليس بالقليل من جهودهم، وكُتبت في ذلك فصول وكتبٌ مستقلة في البحث عن سر الإعجاز وبيان وجوهه، وتوضيحها، وسنقف على مناهج العلماء في ذلك في المبحث الآتي، إن شاء الله.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

المبحث الثاني: مناهج العلماء في دراسة الإعجاز:

إن ما كُتب في بيان وجوه إعجاز القرآن لا يستوعبه كتاب، بل تقصر عنه المجلدات، وليس من غرضنا هنا الدخول في تلك التفصيلات، وإنما القصد متجه إلى الوقوف على طريقة المؤلفين في تحديد وجوه الإعجاز، للتعرف على الاتجاهات والموازنة بينها وتحديد أقربها إلى طبيعة الموضوع وحاجة العصر. وسوف أقتصر في العرض على أشهر المؤلفين في الإعجاز وعلى أشهر المناهج فيه، لأن تقصي ذلك كله أمر خارج عن حدود هذا البحث.

---

(١) الباقلاني: إعجاز القرآن، (ص٢٠)، وينظر: الخطابي: بيان إعجاز القرآن، (ص٢١).

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان (١/ ٤٦٥)، والرماني: النكت، (ص١١٣).

(١) تكاد كلمة العلماء تتفق على أن الجاحظ (أبا عثمان عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ) هو أول من درس موضوع الإعجاز في كتاب مستقل، حيث يذكر له المؤرخون كتاب (نظم القرآن)[١]، والظاهر أن الجاحظ يذهب إلى أن إعجاز القرآن كائن في نظمه وتأليفه، وهو يرد في ذلك على شيخه إبراهيم بن سيَّار النّظام (ت ٢٢٤هـ) الذي ذهب إلى أن الإعجاز كائن في أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، ولولا ذلك لكان في مقدورهم الإتيان بمثله، ويسمّى هذا المذهب بالصَّرفة. وهو قول أنكره جمهور العلماء وردّوه.[٢]

(٢) ومن أقدم الكُتب التي عالجت الموضوع كتاب (بيان إعجاز القرآن) لأبي سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطابي (ت٣٨٨هـ)، الذي استهله بقوله: «قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كل مذهب من القول».[٣] ثم عرض الخطابي ثلاثاً من تلك المذاهب، لكنه لا يوافق القائلين بها، وهي:[٤]

(أ) ذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصَّرفة، وهو ينكر ذلك.

(ب) وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، وهو يقول: ولا يُشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون (٢/ ١٩٦٤)، والبغدادي: هدية العارفين (١/ ٨٠٣)، وذكره الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، (ص٦ و٢٤٨). ولمحمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ) كتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه (ابن النديم: الفهرست ٢٢٠).

(٢) ينظر: الخطابي: إعجاز القرآن، والباقلاني: إعجاز القرآن، ص٢٩، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٥)، والزركشي: البرهان (٢/ ٩٣)، وأبو زهرة: المعجزة الكبرى، ص٧٥.

(٣) بيان إعجاز القرآن، (ص٢١).

(٤) المصدر نفسه، (ص٢٢-٢٤).

(جـ) وزعم آخرون أن إعجازه من جهة بلاغته، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، لكنه يأخذ عليهم أنهم إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة لم يتمكنوا وقالوا: إن ذلك شيء لا يمكن تصويره وأنه يظهر أثره في النفس حينما لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به.

ويتلخص رأي الخطابي في إعجاز القرآن بقوله: «واعلم أنَّ القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني....».[1] والتفت إلى الأثر الذي يتركه سماع القرآن الكريم في النفس، وجعله أحد وجوه الإعجاز، ولتميزه في ذكر هذا الوجه أنقل نص كلامه، قال: «في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجب والقلق، وتغشاها الخوف والفرَق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عدواتهم موالاة، وكفرهم إيماناً...».[2]

(٣) وألَّف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ) كتاب (النُكت في إعجاز القرآن)، وقال في أوله: «وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصَّرْفة، والبلاغة،

---

(١) المصدر نفسه.(ص٢٧).

(٢) المصدر نفسه،(ص٧٠).

والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة».[1]، ثم بيَّن تلك الوجوه،وقد استغرق حديثه من البلاغة وأقسامها معظم الكتاب.[2]

(٤) وفصَّل أبو بكر محمّد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) وجوه الإعجاز في كتابه (إعجاز القرآن)، وذكرها ملخصة في كتابه (الانتصار لنقل القرآن) وهي عنده ثلاثة أوجه:

أحدها: ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب، وما يحدث وما يكون، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه.

والوجه الثاني: ما تضمنه من قصص الأولين، وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلا من أكثر ملاقاة الأمم، ودراسة الكتب، مع العلم بأن النبي ﷺ كان أمياً، ولم يكن يعرف شيئاً من كُتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم.

والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه.[3]

(٥) وممن اعتنى بإعجاز القرآن أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وكتب في ذلك (الرسالة الشافية) التي ضمنها جُملاً من «القول في بيان عجز العرب حين تُحدُّوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى الشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين ....».[4] وهذه الرسالة كتبها عبد القاهر ليثبت حقيقة الإعجاز لا ليبين أسراره، أما تفصيل القول في أسرار الإعجاز فقد جاء في كتابه (دلائل الإعجاز). وتتلخص فكرته عن الإعجاز الذي

(١) النكت، (ص٧٥).

(٢) النكت، (ص٧٥-١٠٩)، وبقية الوجوه، (ص١٠٩-١١١).

(٣) إعجاز القرآن (٣٣-٣٥)، ونكت الانتصار (ص ٥٨و٢٤٢).

(٤) الرسالة الشافية، (ص١١٧).

أَلَّف الكتاب لتأكيدها في قوله: «فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عدَّدنا، لم يبق إلا أن يكون في (النظم)، لأنه ليس من بعد ما أبطلناه أن يكون فيه إلا (النظم) و(الاستعارة). ولا يمكن أن تجعل (الاستعارة) الأصل في الإعجاز وأن يُقْصَر عليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آيٍ معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة. وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن (النظم) مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه... وكنا قد قلنا أن ليس (النظم) شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم».[1]

(٦) وبحث القاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ)، الإعجاز في كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) وحدَّد وجوه الإعجاز في أربعة:[2]

أولها: حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

والثاني: صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، وكلا الوجهين يؤول إلى الناحية البيانية في القرآن.[3]

والثالث: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات، وما لم يكن ولم يقع، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر.

والرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة.

وأضاف إليها وجوهاً أخرى، أهمها:[4]

(أ) ما ورد من تعجيز قوم في قضايا، فما فعلوا.

(ب) الروعة التي تلحق قلوب سامعيه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته.

---

(١) دلائل الإعجاز، (ص٣٩١).

(٢) الشفا (١/ ٤٩١و٥١١و٥١٨و٥٢٢)، وينظر: السيوطي: الاتقان (٤/ ١٦).

(٣) أبو زهرة: المعجزة الكبرى (ص٨٧).

(٤) الشفا (١/ ٥٢٦و٥٢٩و٥٣٣و٥٣٥و٥٣٦).

(ج) كونه آيةً باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله تعالى بحفظه.

(د) أن قارئه لا يملُّه، وسامعه لا يَمُجُّهُ.

(هـ) جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة، ولا محمّد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها ولا القيام بها.

(٧) ويقرر علم الدين علي بن محمّد السخاوي (ت٦٤٣هـ) أن إعجاز القرآن من قِبَلِ أنه خارج في بديع نظمه وغرابة أساليبه عن معهود كلام البشر، مختص بنمط غريب، لا يشبه شيئاً من القول في الرصف والترتيب، لا هو من قبيل الشعر، ولا من ضروب الخطب، والسجع، يعلم مَنْ تأمله أنه خارج عن المألوف، مباين للمعروف، متناسب في البلاغة، متشابه في البراعة، بريئ من التكلف، مُنَزَّهٌ عن التصنع والتعسف.

أما ما تضمنه القرآن العزيز من الإخبار عن المُغيَّبِ وما أتى به من أخبار القرون الماضية والأمم الخالية، وبما كان من أول خلق الأرض والسماء إلى انقضاء الدنيا، فذلك-في رأيه- ليس مما تحدَّاهم به، ولكنه دليل على صدق الرسول ﷺ.[(١)]

(٨) وجعل أبو عبدالله محمّد بن أحمد القرطبي (ت٦٨٤هـ) وجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة، منها ما يتعلق بنظمه وتأليفه، ومنها ما يتعلق بمعانيه وأحكامه، وقد استطلت ذكرها.[(٢)]

(٩) وذكر بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) اثنى عشر وجهاً من وجوه الإعجاز[(٣)]، وهي لا تخرج عما ذكره السابقون له.

(١٠) ولخَّص جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) جهود العلماء السابقين له في موضوع إعجاز القرآن في باب من أبواب كتابه الكبير (الاتقان في علوم القرآن)[(٤)] كما

---

(١) جمال القراء (١/ ٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٣).

(٣) البرهان (٢/ ١٠٦).

(٤) الاتقان (٤/ ٣-٢٣).

أنه ألّف كتاباً حافلاً في الموضوع سمّاه (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، جاء في ثلاثة أجزاء كبيرة، وذكر أن بعض العلماء أنهى وجوه إعجازه إلى ثمانين.[١] وبلغ ما ذكره هو خمسة وثلاثين وجهاً، استغرق الوجه الأخير من وجوه إعجازه أكثر من ثلثي الكتاب وهو في (ألفاظ القرآن المشتركة) وقال في أول كلامه عنه: «وهذا الوجه من أعظم إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر».[٢] وكثير مما ذكره السيوطي لا يدخل في موضوع الإعجاز وقد أشار هو نفسه إلى ذلك بقوله: «وإن كانت بعض الأوجه لا تعدُّ من إعجازه، فإنما ذكرتها للاطلاع على بعض معانيه، فَيَثْلَجُ له صدرك، وتبتهج نفسك».[٣]

ولم يكن المحدثون أقل عناية ببحث وجوه إعجاز القرآن من السابقين، فألَّفوا في ذلك الكتب وعقدوا الفصول، وسأقتصر هنا على ذكر الاتجاهات البارزة لديهم في معالجة الموضوع، دون الخوض في التفصيلات، وهي:

الاتجاه الأول: يقدِّم عدداً كبيراً من وجوه الإعجاز، وقد أوصلها الشيخ محمّد عبد العظيم الزرقاني إلى أربعة عشر وجهاً، هذه عناوينها:[٤]

الوجه الأول: لغته وأسلوبه.

الوجه الثاني: طريقة تأليفه.

الوجه الثالث: علومه ومعارفه.

الوجه الرابع: وفاؤه بحاجات البشر.

الوجه الخامس: موقف القرآن من العلوم الكونية.

---

(١) معترك الأقران (١/ ٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٥١٤).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٢).

(٤) مناهل العرفان (٢/ ٢٨٨-٣٠٨).

الوجه السادس: سياسته في الإصلاح.

الوجه السابع: أنباء الغيب فيه.

الوجه الثامن: آيات العتاب.

الوجه التاسع: ما نزل بعد طول انتظار.

الوجه العاشر: مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه.

الوجه الحادى عشر: آية المباهلة.

الوجه الثاني عشر: عجز الرسول ﷺ عن الإتيان ببدل له.

الوجه الثالث عشر: الآيات التي تُجَرِّدُ الرسول ﷺ من نسبته إليه.

الوجه الرابع عشر: تأثير القرآن ونجاحه.

الاتجاه الثاني: يجعل الإعجاز منقسماً على ثلاثة نواحٍ هي:(١)

(١) الإعجاز اللغوي (البياني).

(٢) الإعجاز العلمي.

(٣) الإعجاز التشريعي (أو الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي).

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الاتجاه الثالث: يقصر الإعجاز على الجانب البياني من القرآن، فهو «كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب»، ثم «إن ما في القرآن من مكنون الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعدُّ دليلاً على أنه من عند الله تعالى....».(٢)

(١) ينظر: محمّد عبدالله دراز: النبأ العظيم، (ص٧٩)، ومناع القطان: مباحث في علوم القرآن، (ص٢٦٤).

(٢) محمود محمّد شاكر، فصل في إعجاز القرآن (وهو تقديم لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي) (ص٢٤-٢٥).

الاتجاه الرابع: يقصر الإعجاز على ما في القرآن من معان سامية وتشريع حكيم، فإعجازه «في رسالته العليا النافعة للناس كافة... هذه الرسالة لو نقلت بأمانة إلى أي لغة من لغات العالم لكان لها في ناطقيها وقع مثل وقعها في العربية...وكان إعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته في العربية فحسب كيف آمن غير العرب به؟... فالقرآن معجزة لما في رسالته من تعليمات عليا، وإرشادات سامية، وغايات نبيلة، وأغراض شريفة، وأهداف قيمة، تزيد الإيمان وتحث المؤمنين على الأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق...»[(١)].

المبحث الثالث: ملامح المنهج الأمثل:

إن كثرة الوجوه التي ذكرها العلماء في بيان الإعجاز تساعد قُرَّاء القرآن في كثير من الأحيان في الوقوف على جوانب من أسراره، كما أنها قد تكون سبباً في حجب تلك الأسرار الباهرة، وذلك حين يقف المرء على بعض الأقوال المتعارضة في تحديد وجوه الإعجاز، وقد جعل ذلك السيوطي يقول: «وقد خاض الناس في ذلك كثيراً، فبين مُحسن ومُسيء»[(٢)].

ونحن نعتقد أن كثرة تلك الوجوه وتباينها في بعض الأحيان لا تُغيِّر من حقيقة إعجاز القرآن، وإنما هي تعكس تفاوت العلماء في إدراك ذلك الإعجاز، وقد أخبر كل واحد منهم بما عرف، لأن أمر القرآن عجيب، «يراه الأديب معجزاً، ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً، ويراه المُرَبُّون معجزاً، ويراه علماء النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخ في علمه معجزاً»[(٣)].

(١) عبد الرحمن الطاهر بن محمّد السورتي: مقدمة تحقيق تفسير مجاهد، (ص١٢-١٥).
(٢) الاتقان (٤/ ٦).
(٣) فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ص٢٢.

ونحن نعتقد أيضاً أن تلك الوجوه يمكن أن تُسلك في منهج يزيل ما قد يبدو بينها من تعارض، ويكون كل وجه كاشفاً عن جانب من أسرار القرآن، أو مقدماً الدليل على صدق الرسول ﷺ في ما أخبر به من أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم، وتتلخص ملامح هذا المنهج في أمرين:

الأول: تحديد الوجه الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن أو معارضته، في عصر النبوة.

الثاني: تحديد ما جاء في القرآن من الأمور التي تدل على أنه لا يمكن أن يكون من عند أحد سوى الله تعالى.

وهذا المنهج في دراسة إعجاز القرآن ليس من وضعنا، فقد أشار إليه بعض العلماء السابقين، كما ذكره عدد من المحدثين، ولكنا نريد أن نقف عنده، ونوضح جوانبه، ونؤكد عليه، لأنه هو المنهج المناسب في اعتقادنا لدراسة إعجاز القرآن على نحو مؤثر ومفيد، وإليكم البيان:

(١) كان علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ) أول عالم يَفْرِقُ بين الأمرين السابقين في دراسة الإعجاز، فيما اطلعت عليه، وقد ألمحت إلى رأيه من قبل، ونقف عنده هنا، لأهمية الفكرة التي عرضها في الموضوع، يقول في مطلع الباب الذي عقده عن الإعجاز في كتابه الكبير (جمال القراء وكمال الإقراء): «لا ريب في عجز البلغاء وقصور الفصحاء عن معارضة القرآن العظيم، وعن الإتيان بسورة من مثله في حديث الزمان والقديم، وذلك ظاهر مكشوف ومتيقن معروف، لا سيما القوم الذين تحدَّاهم رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا ذوي حرص على تكذيبه والرد عليه، وحالهم معه معروفة في معاداته ومعاندته، وإظهار بغضه وأذاه، وقذفه بالجنون والشعر والسحر، فكيف يَترك من هذه حاله معارضته وهو قادر عليها... فلا ريب في أنهم راموا ذلك فما أطاقوه، وجاولوه فما استطاعوه، وأنهم رأوا نظماً عجيباً خارجاً عن أساليب كلامهم، ورصفاً بديعاً مبايناً لقوانين بلاغتهم ونظامهم، فأيقنوا بالقصور عن معارضته، واستشعروا العجز عن مقابلته، وهذا هو الوجه في إعجاز القرآن... «وأما

ما تضمنه القرآن العزيز من الإخبار عن المغيب، فليس ذلك مما تحداهم به، ولكنه دليل على صدق الرسول ﷺ في كونه أمياً لا معرفة له ولا يُحسن أن يقرأ، ولا وقف على شيء من أخبار الأمم السالفة، حتى إنه لا يقول الشعر، ولا ينظر في الكتب، ثم إنه قد أتى بأخبار القرون الماضية والأمم الخالية، وبما كان من أول خلق الأرض والسماء إلى انقضاء الدنيا، وهم يعلمون ذلك من حاله ولا يشكون فيه، فهذه الحال دليل قاطع بصدقه ﷺ.

«ولكن إعجاز القرآن من قبل أنه خارج في بديع نظمه وغرابة أساليبه عن معهود كلام البشر، مختص بنمط غريب، لا يشبه شيئاً من القول في الرصف والترتيب، لا هو من قبيل الشعر، ولا من ضروب الخطب والسجع، يعلم مَنْ تأمله أنه خارج عن المألوف، مباين للمعروف، متناسب في البلاغة، متشابه في البراعة، بريء من التكلف، مُنَزَّهٌ عن التصنع والتعسف»[(١)].

وقد أكد علم الدين هذا المعنى في موضع آخر حيث قال: «فإن قيل: فهل في إقامته البراهين، وإيراد الدلائل على الوحدانية بذكر السماوات والأرض وتصريف الرياح والسحاب، وبأنه لو كان فيها إله آخر لفسدتا، وعلى البعث بإنزال الماء وإحياء الأرض بعد موتها. وبالنشأة الأولى إلى غير ذلك إعجاز؟ قلت: الإعجاز من جهة إيراد هذه الحجج في الأساليب العجيبة والبلاغة الفائقة، فهو راجع إلى ما قدّمناه من نظم القرآن وإعجازه، وأما كونها براهين قاطعة، فهو دليل على صدق النبي ﷺ...»[(٢)].

(٢) وتحدّث الأستاذ محمود محمّد شاكر عن ذلك أيضاً في (فصل في إعجاز القرآن) وهو تقديم لكتاب (الظاهرة القرآنية)، فقال: «ولا مناص لمتكلم في (إعجاز القرآن) من أن يتبين حقيقتين عظيمتين... وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس، وأن يُميِّز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما.

---

(١) جمال القراء (١/ ٤٣-٤٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٧).

أولاهما: أن (إعجاز القرآن) كما يدل عليه لفظه وتاريخه...إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله، ولا بعلم ما لايدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن من عند الله... لا يكون شيء منها يدل على أن القرآن معجز، ولا أظن أن قائلاً يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كُتب معجزة، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن، من أجل أنها كُتب منزلة من عند الله. ومن البيِّن أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ﷺ، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه، بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به... فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن.

والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر وفي دراسة (إعجاز القرآن) قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قديماً وحديثاً....».[١]

وبناءً على هذا فقد ذهب الأستاذ محمود محمّد شاكر إلى «أن الإعجاز كائن في وصف القرآن وبيانه ونظمه...وأن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعدُّ دليلاً على أنه من عند الله تعالى...».[٢]

(٣) واتخذ الشيخ محمّد أبو زهرة في فهم الإعجاز موقفاً مقارباً لذلك، حيث قال وهو يعلّق على الوجوه الكثيرة التي يذكرها الدارسون في بيان إعجاز القرآن: «إن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم... والوجوه الأخرى لم يتحد بها القرآن

---

(١) فصل في إعجاز القرآن، (ص١٧-١٨).

(٢) المصدر نفسه، (ص٢٤-٢٥).

الكريم، وإن كانت من عند الله تعالى العليم الحكيم، مثل إخباره عن أمور مغيبة في المستقبل، ثم وقوعها كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه. وإخباره عن الأمم السابقة... فَذِكرُ هذا في القرآن الذي نزل على أُميٍّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم، دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى.... فكان التحدي للعرب ابتداء بالمنهج البياني للقرآن...»[1].

ثم يقول الشيخ أبو زهرة: «وعلى ذلك نقسم وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن إلى قسمين:

أولهما: ما يتعلق بالمنهاج البياني، وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب.

القسم الثاني: الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكرٍ لأخبار السابقين، ولأخبار مستقبلة، وقعت كما ذكر، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمّد ﷺ وقد أتى بها القرآن، وتقررت حقائقها من بعد، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة، وأن هذا النوع معجزة للأجيال كلها»[2].

يمكن أن نقرر من خلال العرض السابق الأمور الآتية:

أولاً: إن إعجاز القرآن تحقق في ذات الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يتلو فيه القرآن على من حوله من العرب، ويدعوهم إلى الإيمان به، وأن القرآن حين تحدَّى المشركين إلى الإتيان بمثله، فإنه ما كان قد اكتمل نزوله، لكنهم عجزوا، ولجأوا بدلاً عنه إلى القتال وما جرَّ ذلك عليهم من الويلات. وهذا يقتضي أن الإعجاز كائن في كل سورة منه، مهما كان موضوعها، وتتفق كلمة الدارسين على أن الذي أدهش العرب وأعجزهم حين سمعوا تلاوة القرآن إنما هو نظمه وطريقة تعبيره. وقد دلَّت الشواهد التاريخية على أن العربي من عتاة المشركين كان إذا سمع القرآن رَقَّ له وربما

(١) المعجزة الكبرى، (ص٩٠-٩١).

(٢) المصدر نفسه، (ص٩٢).

آمن كما حصل لعمر بن الخطاب ﷺ[1] أو أعرض وفي نفسه الحيرة من أمره، كما وقع للوليد بن المغيرة[2] وعتبة بن ربيعة،[3] وغيرهما.[4]

ثانياً: إن ما جاء في القرآن من الإخبار بالمغيّبات والأمور المستقبلية التي تحققت فيما بعد، وقصص الأمم الماضية، وما جاء فيه من ذكر أسرار الكون وبديع الصنع في الخلائق لم يكن من وجوه الإعجاز الظاهرة التي أعجزت العرب في عصر النبوة، وذلك لأن وقوف الناس على ما في هذه المعاني من الحكمة الباهرة التي يعجز عنها البشر كان متراخياً عن زمن التحدي، و «لا يصح أن يكون شاهد المعجزة متراخياً في الزمن عنها، واقعاً في أعقابها»[5]، ولكن ذلك يعطي الدليل المستمر على صدق النبي ﷺ وأن هذا القرآن من عند الله تعالى.

ثالثاً: إننا إذا أردنا أن نقدّم منهجاً لدراسة الإعجاز في القرآن وجدنا أن أقربها إلى الواقع ما رسمه علم الدين السخاوي ومحمود محمّد شاكر وأبو زهرة، لكن الأوَّلَيْن يُخرجان كل ما عدا النظم وبديع التأليف من دائرة الإعجاز، بل إن محموداً يرى أن ما عدا ذلك «هو أقرب إلى أن يكون باباً من علم التوحيد».[6]

رابعاً: ويظهر لي أننا في عصرنا هذا بنا حاجة إلى منهج يوضح لنا حقيقة الإعجاز الذي أحس به العرب في عصر النبوة كما يوضح لنا الجوانب التي تقدم الأدلة العلمية المحسوسة على أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر وأنه من عند الله العليم الحكيم، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليكون ذلك عنصراً في دعوة الناس إلى الإيمان.

فالوقوف على سر الإعجاز المتعلق بتعبير القرآن مباشرة أمر يعجز عنه جمهور

---

(١) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٣٤٣)، وأبو نعيم: دلائل النبوة، (ص١٩٤).

(٢) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٢٧٠)، والطبري: جامع البيان (٢٩/ ١٥٦)

(٣) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٢٩٣)، وأبو نعيم: دلائل النبوة، (ص١٨٧).

(٤) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٣١٥).

(٥) عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين (١/ ٣٣٥).

(٦) فصل في إعجاز القرآن، (ص١٩).

الناس اليوم لأن «كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلمات اللغوية، وليس لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها، ومن الصعب أن يهتدي هؤلاء إلى أمثال هذه المواطن بأنفسهم من غير دليل يأخذ بأيديهم يدلهم على مواطن الفن والجمال ويبصرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يَعُونها ويفهمونها».[1]

خامساً: إن هذا المنهج في دراسة الإعجاز لا يهمل التراث الكبير الذي خلفه العلماء السابقون في موضوع الإعجاز، لكنه يعيد تنظيمه على نحو أكثر وضوحاً وتناسقاً، في إطار يضم ما كان أصلاً سراً للإعجاز، وما ظهر بعد ذلك من دلائل صدق النبوة وربانية القرآن. وبهذا تصبح كلمة الإعجاز ذات دلالة أوسع مما وُضعت له في أول الأمر من بيان سر عجز العرب عن محاكاته، لتدل على ذلك ثم على ما وقف عليه العلماء بعد ذلك من أسرار القرآن التشريعية والعلمية والتاريخية.

وبعد فهذا ما تيسر لي من الكلام عن مناهج العلماء في دراسة إعجاز القرآن، أسأل الله تعالى أن يفقهنا في القرآن لندرك شيئاً من أسرار إعجازه وأن يجعل أعمالنا خالصة له، هو حسبنا ونعم الوكيل.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامى

(١) فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني. (ص١٠).